٣ ـ المشكلة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما البقية من هذه الآراء التي تلقيتها فكل أصحابها متوافقون على مثل الرأي الواحد من وجوب إمساك الزوجة والاقبال عليها، وإرسال « تلك » والانصراف عنها، وأن يكون للرجل في ذلك عزمٌ لا يتقلقل ومضاء لا ينثني، وأن يصبر للنفرة حتى يستأنس منها فانها ستتحول، ويجعل الأناةَ بازاء الضجر فانها تصلحه، والمروءةَ بازاء الكره فانها تحمله، وليترك الأيام تعمل عملها فانه الآن يعترضُ هذا العمل ويعطله، وإن الأيام إذا عملت فستغير وتبدّل، ولا يُستقَلُّ القليلُ تكون الأيامُ معه ولا يُستكثر الكثيرُ تكون الأيامُ عليه

والعديدُ الأكبر ممن كتبوا إليّ يحفظون على صاحب المشكلة ذلك البيانَ الذي وضعناه على لسانه في المقال الأول ويحاسبونه به ويقيمون منه الحجةَ عليه، ويقولون له أنت اعترفت، وأنت أنكرت، وأنت رددت على نفسك، وأنت نصبتَ الميزان فكيف لا تقبل الوزن به؟ وقد غفلوا عن أن المقال من كلامنا نحن وأن ذلك أسلوبٌ من القول أدرناه ونحلناه ذلك الشابَّ ليكون فيه الاعتراضُ وجوابُه، والخطأ والرد عليه، ولنُظهر به الرجلَ كالأبله في حيرته ومشكلته تنفيرا لغيره عن مثل موقفه، ثم لنحرك به العللَ الباطنةَ في نفسه هو فنصرفه عن الهوى شيئاً فشيئاً إلى الرأي شيئاً فشيئاً، حتى إذا قرأ قصةَ نفسه قرأها بتبيير من قلبه وتعبير آخر من العقل، وتلمح ما خفي عليه فيما ظهر له، واهتدى من التقييد إلى سبيل الاطلاق، وعرف كيف يخلّص بين الواجب والحب اللذين اختلطا عليه وامتزجا له امتزاجَ الماء والخمر. وبذلك الأسلوب جاءت المشكلة معقدةً منحلةً في لسان صاحبها، وبقي أن يُدفع صاحبها بكلام آخر إلى موضع الرأي

وكثير من الكتاب لم يزيدوا على أن نبهوا الرجل إلى حق زوجته ثم يدعون الله أن يرزقه عقلاً . . . وقد أصاب هؤلاء أحسن التوفيق فيما ألهموا من هذه الدعوة، فانما جاءت المشكلة من أن الرجل قد فقد التمييز وجُنَّ بجنونين: أحدهما في الداخل من عقله والثاني في الخارج منه، فأصبح لا يبالي الاثمَ والبغض عند زوجته إذا هو أصاب الحظوةَ والسرور عند الأخرى؛ فتعدّى طوره مع المرأتين جميعاً، وظلم الزوجة بأن استلب حقها فيه، وظلم الأخرى بأن زادها ذلك الحق فجعلها كالسارقة والمعتدية

وقد تمنى أحد القراء من فلسطين [1] أن يرزقه الله مثل هذه الزوجة المكروهة كراهة حب، ويضعَه موضعَ صاحب المشكلة ليثبت أنه رجل يحكم الكره ويصرّفه على ما يشاء ولا يرضى أن يحكمه الحب وإن كان هو الحب. وهذا رأي حصيف جيد فان العاشق الذي يتلمّس الحب به ويصده عن زوجته لا يكون رجلا صحيح الرجولة، بل هو أسخف الأمثلة في الأزواج، بل هو مجرم أخلاقي ينصب لزوجته من نفسه مثالَ الماهر الفاسق ليدفعها إلى الدعارة والفسق من حيث يدري أو لا يدري؛ بل هو غبيٌّ إذ لا يعرف أن انفراد زوجته وتراجُمَها إلى نفسها الحزينة ينشىء في نفسها الحنين إلى رجل آخر؛ بل هو مغفل إذ لا يدرك أن شريعة السن بالسن والعين بالعين، هي بنفسها عند المرأة شريعة الرجل بالرجل . . . . . .

والمرأة التي تجد من زوجها الكراهيةَ لا تعرفها أنها الكراهةُ إلا أوّلَ أول؛ ثم تنظر فاذا الكراهة هي احتقارُها واهانتها في أخص خصائصها النسوية، ثم تنظر فاذا هي إثارة كبريائها وتحديها، ثم تنظر فاذا هي دفعُ غريزتها أن تعمل على اثبات أنها جديرة بالحب، وأنها قادرة على النقمة والمجازاة، ثم تنظر فاذا برهان كل ذلك لا يجيء من عقل ولا منطق ولا فضيلة، وانما يأتي من رجل ..... رجل يحقق لها هي أن زوجها مغفل وأنها جديرة بالحب

* * *

وكأن هذا المعنى هو الذي أشارت اليه الأديبة ف . ز . وإن كانت لم تبسطه، فقد قالت: وإن صاحب هذه المشكلة غبي، ولا يكون إلا رجلا مريض النفس مريض الخلُق، وما رأيت مثله رجلا أبعد من الرجل ... ومثلُ هذا هو في نفسه مشكلة

(١) هذه الآراء التي سننقلها قد تصرفنا في جميعها بالعبارة، ولكنا لم نخرج عما يرمي إليه صاحب الرأي وما أقام رأيه عليه

فكيف تحل مشكلته ؟ إنه من ناحية زوجته مغفل لا وصف له عندها إلا هذا ؛ ومن جهة حبيبته خائن والخيانة أول أوصافه عندها

وهذا الزوج يسمم الآن أخلاق زوجته ويفسد طباعها ، وينشئ لها قصة في أولها غباوته وإثمه ، وسيتركها تتم الرواية فلا يعلم إلا الله ما يكون آخرها . ويمثل هذا الرجل أصبح المتعلمات يعتقدن أن أكثر الشبان إن لم يكونوا جميعاً – هم كاذبون في ادعاء الحب ، فليس منهم إلا الغواية ؛ أو هم مجبون يكذب الأمل بهم على النساء ، فليس منهم إلا الخيبة

قالت : وخير ما تفعله صاحبة المشكلة أن تصنع ما صنعته أخرى لها مثل قصتها ، فهذه حين علمت بزواج صاحبها قذفت به من طريق آمالها الى الطريق الذى جاء منه ، وأنزلته من درجة أنه كل الناس إلى منزلة أنه ككل الناس ، ونبهت حزمها وعزيمتها وكبرياءها فرأته بعد ذلك أهون على نفسها من أن يكون سبباً لشقاء أو حسرة أو هم ، وابتعدت بفضائلها عن طريق الحب الذى تعرف أنه لا يستقيم إلا لزوجة وزوجها ، فاذا مشت فيه امرأة إلى غير زواج ، انحرف بها من هنا ، واعوج لها من هنا ، فلم ينته بها فى الغاية إلا أن تعود إلى نفسها وعليها غباره ، وما غبار هذا الطريق إلا سواد وجه المرأة .....

وقد جهد الرجل بصاحبته أن تتخذه صديقاً ، فأبت أن تتقبل منه برهان خيبتها . . . وأظهرت له جفوة فيها احتقار ، وأعلمته أن نكث العهد لا يخرج منه عهده ، وأن الصداقة إذا بدأت من آخر الحب تغير اسمها وروحها ومعناها ، فاما أن تكون حينئذ أسقط ما فى الحب ، أو أكذب ما فى الصداقة

ثم قالت الأديبة : وهى كانت تحبه ، بل كانت مستهامة به ، غير أنها كانت أيضاً طاهرة القلب ، لا تريد فى الحبيب رجلا هو رجل الحيلة عليها فتُخدع به ، ولا رجل العار فتسب به ، وفى طهارة المرأة جزاء نفسها من قوة الثقة والاطمئنان وحسن التمكن ؛ وهذا القلب الطاهر إذا فقد الحب لم يفقد الطمأنينة ، كالتاجر الحاذق إن خسر الربح لم يفلس ، لأن مهارته من بعض خصائصها القدرة على الاحتمال والصبر للمجاهدة

قالت : فعلى صاحبة المشكلة التى عرفت كيف تحب وتجل أن تعرف الآن كيف تحتقر وتزدرى

* * *

وللأديبة ف . ع رأى جزل مسدد ؛ قالت : إنما هى قد كانت يوما بالموضع الذى فيه صاحبة المشكلة ، فلما وقعت الواقعة أنفت أن تكون لصة قلوب ، وقالت فى نفسها : إذا لم يقدر لى ، فان الله هو الذى أراد ، وإنى أستحى من الله أن أحاربه فى هذه الزوجة المسكينة ، ولئن كنت قادرة على الفوز إن انتصارى عليها عند حبيبي هو انتصارها على عند ربى ، فلأخسر هذا الحب لأرابح الله برأس مال عزيز خسرته من أجله ، ولأبق على أخلاق الرجل ليبقى رجلا لامرأته فما يسرنى أن أنال الدنيا كلها وأهدم بيتاً على قلب ، ولا معنى لحب سيكون فيه الاثم بل سيكون ألأم الاثم .

قالت : وعلمت أن الله تعالى قد جعلني أنا السعادة والشقاء فى هذا الوضع ليرى كيف أصنع ، وأيقنت أن ليس بين هذين الضدين إلا حكمتى أو حمقى ، وصح عندى أن حسن المداخلة فى هذه المشكلة هو الحل الحقيق للمشكلة

قالت : فتغيرت لصاحبي تغيراً صناعياً ، وكانت نيتى له هى أكبر أعوانى عليه ، فما لبث هذا الانقلاب أن صار طبيعياً بعد قليل . وكنت أستمد من قلب امرأته إذا اختاننى الضعف أو نالنى الجزع فأشعر أن لى قوة قلبين . وزدت على ذلك النصح لصاحبي نصحاً ميسراً قائماً على الاقناع وإثارة النخوة فيه وتبصيره بواجبات الرجل ، وترفقت فى التوصل الى ضميره لأثبت له أن عزة الوفاء لا تكون بالخيانة ، وبينت له أنه إذا طلق زوجته من أجلى فما يصنع أكثر من أن يقيم البرهان على أنه لا يصلح لى زوجاً . ثم دللته برفق على أن خير مايصنع وخير ما هو صانع لارضائى أن يقلدنى فى الايثار وكرم النفس ويحتذينى فى الخير والفضيلة ، وأن يعتقد أن دموع المظلومين هى فى أعينهم دموع ، ولكنها فى يد الله صواعق يضرب بها الظالم

قالت : وبهذا وبعد هذا انقلب حبه لى إكباراً وإعظاما وسما فوق أن يكون حباً كالحب ؛ وصار يجدنى فى ذات نفسه وفى ضميره كالتوبيخ له كلما أراد بامرأته سوءا أو حاول أن يغض منها فى نفسه . واعتاد أن يكرمها فأكرمها ، وصلحت لها نيته فاتصل بينهما

السبب ، وكبرت هذه النيةُ الطيبة فصارت ودا ، وكبر هذا الود فعاد حباً ، وقامت حياتهما على الأساس الذى وضعته أنا بيدى ، أنا بيدى ......

أما أنا ... ؟

* * *

وكتب فاضل من حلوان : إن له صديقا ابتلى بمثل هذه المشكلة فركب رأسه فما ردَّه شيء . عمد الزواج بحبيبته ، وزُفَّ اليها كأنه ملك يدخل إلى قصر خياله ، وكأن أهله يعذلونه ويلومونه ويُخلصون له النُّصح ويجتهدون فى أمره جهدهم ، إذ يرون بأعينهم مالا يرى بعينه ، فكان النصح ينتهى اليه فيظنه غشاً وتلبيساً ، وكان اللوم يبلغه فيراه ظلماً وتحاملاً ؛ وكان قلبه يترجم له كل كلمة فى حبيبته بمعنى منها هى لا من الحقائق ، إذ غلبت على عقله فبها يعقل ، وذهبت بقلبه فبها يحس ، واستبدت بإرادته فلها ينقاد ؛ وعادت خواطره وأفكاره تدور عليها كالحواشى على العبارة المغلقة فى كتاب ؛ واستقرَّت له فيها قوة من الحب أمرها إذا أرادت شيئاً أن تقول له كن ...

ثم مضت الليلة بعد الليلة وجاء اليوم بعد اليوم والموج يأخذ من الساحل الذرَّة بعد الذرة والساحل لا يشعر ، إلى أن تصرمت أشهر قليلة فلم تلبث الطبيعة التى ألفت الرواية وجعلتها قبل الزواج رواية الملك والملكة، وقصة التاج والعرش ، وحديث الدنيا وملك الدنيا — لم تلبث أن انتقلت على فجأة فأدارت الرواية إلى فصل السخرية ومنظر التهكم ، وكشفت عن غرضها الخفى وحلت العقدة

قال : ففرغ قلبُ المرأة من الحب وظمىء إلى السُّكر والنشوة مرة أخرى من غير هذه الزجاجة الفارغة .... وبَرَدَ قلب الرجل وكان الشيطان الذى يتسعَّر فيه ناراً ، شيطاناً خبيثاً فتحول إلى لوح من الثلج له طول وعرض . . . .

وجدَّت الحياة وهَزَل الشيطان ، فاستحمق الرجلُ نفسه أن يكون اختار هذه المرأة له زوجة ، واستجهلت المرأةُ عقلَها أن تكون قد رضيت هذا الرجل زوجاً ، وأنكرها إنكارا أوله الملالة ، وأنكرته إنكارا آخر أوله التبرُّم ؛ وعاد كلاهما من صاحبه كانسان يكلف إنساناً أن يخلق له الأمس الذى مضى

وضربت الحياةُ ضربةً أو ضربتين فاذا أبنيةُ الخيال كلها هَدْمٌ هَدْم ، وإذا الطبيعة مؤلِّفةُ الرواية . . . . قد ختمت روايتها وقوضت المسرح ، وإذا الأحلام مفسرة بالعكس ، فالحب تأويله البغض ، واللذة تفسيرها الألم ، و « البودرة » معناها الجير . . . . وتغير كل ما بينهما إلا الشيطان الذى بينهما ، فهو الذى زوَّج وهو بعينه الذى طلَّق . . . .

* * *

وكتب أديب من بغداد يقول : إنه كان فى هذا الوضع القَلِق موضع صاحب المشكلة ، وأن ذات قرباه التى سميت عليه كانت ملفَّقَة له فى حُجُب عِدَّة لا فى حجاب واحد ، وقد وصِفتْ له بالافة . . . . وفى الافة ما أحسنْ وما أجمل وما أظرف ، وكأنها ظبى يتلفت ، وكأنها غصن يميل ، وكأن سنَّةَ وجهها البدر !

قال : وشبهت له بكل أدوات التشبيه وجاءوا فى أوصافها بمذاهب الاستعارة والمجاز ، فأخذها قصيدة قبل أن يأخذها امرأة . وكان لم ير منها شيئاً وكانت لغة ذوى قرابته وقرابتها كلغة التجارة فى ألسنة حذَّاق السماسرة ، ما بهم إلا تنفيقُ السِّلعة ثم يُخلون بين المشترى وحظِّه

قال : فرسخ كلامهم فى قلبى ، فعقدت عليها ، ثم أعرست بها ونظرت فاذا هى ليست فى الكلمة الأولى ولا الأخيرة مما قالوا ولا فيما بينهما . . . . ثم تعرفت فاذا هى تكبرنى بخمس عشرة سنة . . . . . ورأيت انضاع حالها عندى فأشفقت عليها ، وبت الليلة الأولى مقبلا على نفسى أؤامرها وأناجيها وأنظر فى أى موضع رأيى أنا . وتأملت القصة فاذا امرأة بين رحمة الله ورحمتى ، فقلت إن أنا نزعت رحمتى عنها ليُوشكنَّ الله أن ينزعْ رحمته عنى ، وما بينى وبينه إلا أعمالى ؛ وقلت بانفسى : « إنها إن تَكُ مثقالَ حبةٍ من خَرْدَلٍ فتكنْ فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأتِ بها الله » . وإنما أتقدم إلى عفو الله بآثام وذنوب وغلطات ، فلأجعل هذه المرأةُ حسنتى عنده ، وما علىَّ من عمر سيمضى وتبقى منه هذه الحسنةُ خالدةً مخلَّدة

إنها كانت حاجةَ النفس إلى المتاع فانقلبت حاجةً إلى الثواب ، وكانت شهوةً فرجعت حكمة ، وكنت أريد أن أبلغ

ما أحب فسأبلغ ما يحب . ثم قلت : اللهم إن هذه امرأة تنتظرها ألسنةُ الناس إما بالخير إذا أمسكتها ، وإما بالشر إذا طلقتها ، وقد احتمتْ بي ؛ اللهمّ سأكفيها كلّ هذا لوجهك الكريم

قال : ورأيتني أكون ألأمَ الناس لو أني كشفتُها للناس وقلت انظروا . . . فكأنما كنت أسأتُ إليها فأقبلت أترضّاها ، وجعلتُ أماسحها وألاينُها في القول وعدلتُ عن حظ نفسي إلى حظ نفسها[1] ، واستظهرتُ بقوله تعالى: «وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً» ؛ واعتقدتُ الآيةَ الكريمةَ أصحّ اعتقادٍ وأتمه ، وقلت اللهمّ اجعلها من تفسيرها

قال : فلم تمض أشهر حتى ظهر الحملُ عليها ، فألقى الله في نفسي من الفرح ما لا تعدله الدنيا بحذافيرها ، وأحسستُ لها الحبّ الذي لا يقال فيه جميل ولا قبيح لأنه من ناحيــة النفس الجديدة التي في نفسها (الطفل) . وجعلتُ أرى لها في قلبي كل يوم مداخلَ ومخارج دونها المشقُ في كل مداخله ومخارجه ، وصار الجنين الذي في بطنها يتلألأ نورُه عليها قبل أن يخرج إلى النور ، وأصبحت الأيام معها ربحاً من الزمن فيه الأمل الحلوُ المنتظر

قال : وجاءها المخاض ، وطرَقتْ بغلام ؛ وسمتُ الأصوات ترتفع من حجرتها : ولد ! ولد ! فبشّروا أباه . فوالله لكأن ساعةً من ساعات الخلد وقعت في زمني أنا من دون الخلق جميعاً وجاءتني بكل نعيم الجنة . وما كان ملك العالم — لو ملكته — مستطيعاً أن يهبني ما وهبتني امرأتي من فرح تلك الساعة . إنه فرح المّهى أحسستُ بقلبي أن فيه سلام الله ورحمته وبركته .

ومن يومئذ نطق لسانُ جمالها في صوت هــذا الطفل . ثم جاء أخوه في العام الثاني ، ثم جاء أخوهما في العام الثالث ؛ وعرفتُ بركةَ الاحسان من اللطف الربّاني في حوادث كثيرة وتنفستْ على أنفاس الجنة وفسرت الآية الكريمة نفسها بهؤلاء الأولاد ، فكان تفسيرها الأفراح ، والأفراح ، والأفراح

* * *

ويرى صديقنا الأستاذ محمد حسين جبيره ، أن صاحب المشكلة في مشكلة من رجولته لا من حبه ؛ فلو أن له ألف روح لما استطاع أن يباشر زوجته بواحدة منها إذ هي كلها أرواح صبيانية تبكي على قطعة من الحلوى ممثلة في الحبيبة . . . . ولو عرف هذا الرجل فلسفة الحب والكره لعرف أنه يصنع دموعه بإحساسه الطفلي في هذه المشكلة ؛ ولو أدرك شيئاً لأدرك أن الفاصل بين الحبُ والكره منزوع من نفســه ، إذ الفاصل في الرجل هو الحزم الذي يوضع بين ما يجب وما لا يجب

إنه ما دام بهذه النفس الصغيرة فكل حل لمشكلته هو مشكلة جديدة ، ومثله بلاء على الزوجة والحبيبة معاً ، وكلتاهما بلاء عليه ، وهو بهذه وهذه كمحكوم عليه أن يشنق بامرأة لا مشنقة . . .

هذا عندي ليس بالرجل ولا بالطفل إلى أن يُثبت أنه أحدهما ، فان كان طفلا فمن السخرية به أن يكون متزوجاً ، وإن كان رجلا فليحل هو المشكلة بنفســه ؛ وحلُّها أيسر شيء : حلها تغييرُ حالته العقلية

* * *

ونحن نعتذر للباقين من الأدباء والفضلاء الذين لم نذكر آراءهم ، إذ كان الغرض من الاســتفتاء أن نظفر بالأحوال التي تشبه هــذه الحادثة لا بالآراء والمواعظ والنصائح . أما رأينا ففي البقية الآتية

(طنطا)

(حاشية) : تمثل في نفسي وأنا أبيض هذه المقالة أنها ستثير في نفس إحدى قارئاتها موضعاً ذا شأن وخطر ، وأن هذه القارئة ستتردد في الكتابة إلى والافضاء بمعناها . وقوى ذلك في الخاطر حتى كأنه واقع فما هو ذلك الشأن يا ترى ؟ ان سطراً صغيراً فيه شيء من حكمة الدنيا قد تكون فيه مقالات فلا يبخلن أحد على أحد
الرافعي

البدائع (الطبعة الثانية)

صور وجدانية وأدبية واجتماعية

للدكتور زكي مبارك

صوّر فيه كثيراً من رجال الأدب العربي أمثال : الشيخ المهدي ، المرصفي ، شوقي ، حافظ ، لطفي السيد ، السباعي ، وغيرهم من مشاهير وعظماء الرجال وهو من أحسن المؤلفات في الأدب العربي

طبع للمرة الثانية في جزئين ثمنهما ٢٠ قرشاً صاغا ويطلب من المكتبة المحمودية بالأزهر ص . ب (٥٠٥) مصر

(١) استوفينا بيان هذه المعاني في مقالة (قبح جميــل) من مقالاتنا في (الرسالة)